

يمان القادري ... طالبة سورية "نجحت" في قهر أقبية الاعتقال

skeyesmedia.org/ar/News/News/19-03-2012/1211

بيروت - "سكايز"

مقالات

الإثنين , ١٩ آذار ٢٠١٢



داخل فروع الأمن المخابراتية، تتشابه قصص التعذيب والتنكيل والاعتصاف. هناك تتجلى صور الانتهاكات بحق ارواح الناس وتسقط جميع المعايير الانسانية. أغلبية العاملين تجردوا من إنسانيتهم اثناء التدرج العسكري. شباب وشابات، شيب وأطفال، دخلوها أحراراً وخرجوا منها محملين، إما إلى البرادات وإما إلى المستشفيات. قليل منهم خرج ونطق بما جرى هناك، بين أروقة الغرف المظلمة التي تنمو فيها الغطرسه كالطفيليات. تتجمع في زوايا الغرف البكتيريا والجراثيم، تساعد السجان في تعذيب سجينه اثناء فترات الراحة، تنهش لحمه وتصيبه بأمراض الجرب والفسفس.

صباح يوم الخميس 3 تشرين الثاني/نوفمبر 2011، تهجم الأمن وبعض شبيحته على الطالبة في السنة الثانية يمان القادري أمام بوابة كلية الطب البشري في دمشق، وأبرحوها ضرباً قبل ان يقودوها إلى أقبية الظلام. بعد ثلاثة أشهر على اطلاق سراحها، كتبت القادري قصة اعتقالها التي دامت ثلاثة وعشرين يوماً، كتبت عن معاناتها ومعاناة الكثيرين من رفاقها وأبناء بلدها الذين تشاركهم هم الحرية والتحرر من العبودية. وفصلت يمان لحظات معاناتها على الشكل الآتي:

"سألني، أنت يمان القادري؟، فأجبته بالتأكيد. وسألته ان يعرف عن نفسه، فقال: "أنا أشرف صالح"، طبعاً أشرف صالح، صاحب الصيت "الحמיד" في الجامعة. حاولت ان استغيبه فسألته عمّن يكون وكيف له ان يثبت لي صحة كلامه، فأكد لي أنه رئيس الهيئة الطلابية بكلية الطب البشري.

طلب بطاقتي الجامعية، قبل ان يطلب مني مرافقته، أخذوا زميلي إلى محرس وأدخلوني إلى آخر. داخل المحرس، نفرس صالح بي، وأمطروني بالأسئلة: "أنت صاحبة المنشورات". طبعاً في البداية أنكرت ما ينسب إلي، الا انني سرعان ما اقتنعت بأنهم متأكدون من صورة وجهي، وأسند دليله إلى صورتي الزاهرة على كاميرات المراقبة. لم يخلوا التحقيق من بعض اللكمات والصفعات، وأهمهم الدكتور أشرف ومعاونه طالب في كلية طب الاسنان الذي رفض ضربي بحجة أنه سيحتاج لعشرة أيام لكي يتطهر من لمسي".

أخبروني بأنه تم فصلني من جامعات سوريا، وبشروني بأنني سأتجه إلى مكان لا يعرفه "الجنّي الأزرق". في المحرس كان هناك ثلاثة نساء، احدهن ترندي طوقاً زين بصورة الرئيس بشار الاسد، أفرغت شحناتها المسعورة بضربي. وأخبرني "الاستاذ اياد" أنه لن يضربني هو أيضاً لانه لا يضرب الفتيات، "هكذا يكون الشبيح شريفاً". أحضروا لي القصاصات التي

رميناها، وصرخوا بوجهي: "حتى الآن أوراكم تهرهر من المحابر"، استطاعت مناشيرنا أن توصلهم إلى أعلى درجات الغيظ، وهذا ما أفرحني.

حاولت أن أقنعهم بأنني فتاة، وبأن أهلي ليسوا موجودين في البلد وقيمون في السعودية. كان الخوف يجتاحني من رأسي حتى أخمص القدمين، كانت تنهمر دموعي باستمرار عندما يضربونني. وتدخل احد الشباب وأطل برأسه من شبك المحرس وسألهم عن سبب ضربي، الا انهم وضبوا الموضوع ووضعوا حارساً على الباب، وطلبوا مني ان اخفض صوتي.

سرقوا مني محفظة نقودي، أساتذتي وزملائي سرقوني .. طلبوا لي دورية الأمن. اقتادوني امام أعين الطلاب الذين وقفوا

ركبت السيارة، منظر السلاح أخافني، ضحك أحد العناصر وقال لي اصعدي ولا تخافي. داخل السيارة المدنية تفوقعت، في الخارج ملامح الحزن ترسم على أوجه الطلاب، لوحوا لي بأيديهم. تنبعت للدماء التي تذرف من أنفي. تصرفات العناصر أشعرتني بشفتهم علي. عندما علموا بأنني ابنة "جبرود"، قال أحدهم: "والله بجبرود حتى الآن لم تخرج فيها أي مظاهرة، وذلك اليوم خرجت مسيرة سلمية "بتشهي" دعماً لسيادة الرئيس"، تمالكت نفسي بصعوبة ولم انفجر بوجهه من الضحك، "رغم كل القساوة التي يحملونها لا يستطيع الا ان أشفق عليهم"، في المحرس سألوني عن التمويل وعن "بندر" وقالوا اننا نريد ان نخرب البلد. قال لي أحدهم "لا تخافي، سيراك "المعلم" وتجيبين على سؤاله ثم تعودين إلى البيت"، كل ما خطر ببالي حينها هو "ماذا سيحدث لي بعد السؤال؟".

وصلنا إلى الفرع، وسرعان ما تعرفت اليه، انه الفرع التابع للمخابرات الجوية في حرستا، أخذوا أغراضي وبياناتي وأدخلوني إلى المفردة. في بادئ الأمر كان يجول في خاطري انه هذا هو السجن الذي سمعت عنه مراراً، ممر ضيق تتوزع على طوله الاقبيبة، في الممر يقف بعض السجناء، مغمضي الأعين. احضروا لي كرسيّاً وقالوا لي: "اجلسي وانتظري لحين ان يراك المعلم".

ترين، "بطانية"

واحدة مرمية في الزاوية، وعلبٌ ممتلئة بالبول، رائحة النتانة تحتل فضاء الغرفة الصغيرة. على الجدران، حُفرت توارخ وعبارات، تركها كل الذين سبقوني إلى هنا. امضيت الساعات الأولى أقرأ ما كتب.

عبر تشققات جدران الزنزانة، تتسرب بعض الاصوات من الزنازين المجاورة، بعض المعتقلين يتكلمون ويقرأون القرآن ويصلون. عندما عرفوا بأنني معتقلة، قالوا لي "الله يستر عليك يا أختنا". بعد قليل اتاني شاب من الأمن، كان مسالماً، قال "الحياة فيها تجارب صعبة ويجب أن تواجهيها، الآن سوف يراك "المعلم" وسيطرح عليك بعض الاسئلة فقط".

داخل المكتب الفاخر، يتربع "المعلم"، طلب لنفسه عصير "غريفون" وصرخ بالشاب، "لماذا كشفت لها عن عينيها"، فبرر فعلته بأنني أريد أن أرى طريقي، فأجابه: "كثير هامك تشوف لأتو؟". هنا علمت بأن هذا الرجل ليس بالسهل. أجلسوني على كرسيّ وطلب من عناصره ان يقودوني إلى الخلف، انتصب رجل على يميني وآخر على يساري، ليساعده في تعذيبني.

في البداية، سألني عن محتوى المنشورات، تحجبت بعدم معرفتي، فقال لي: "ألا تتوين ان تساعدي نفسك؟"، خرج من كرسيه لي مناطق مختلفة من

جسدي، وعندما احاول الارتفاع عن الكرسي، يثبتني مساعده أكثر على الكرسي. وعندما عجز عن استخراج الكلمات، طلب منهم الـ220. استخدم معي أداة أقوى، شحنتها أقوى. سألني عن عدد المظاهرات التي شاركت بها. نكرت مشاركتي، كانت لكمة مساعده أسرع من اجابتي، احسست ان فكّي قد خلع من مكانه، وقال لي: "كاذبة". اعترفت بأنني شاركت بواحدة "سلمية" امام منزلي، حاولت قدر الامكان ان أنكر الاتهامات، خصوصاً عندما تأكدت بأنهم لا يملكون الكثير من المعلومات، والهدف من هذه الحفلة هو ترهيبني فقط.

خلال التعذيب، خرجت من مكاني وصرحت في افكاري، لا بد ان عقلي كان يحاول ان يساعدي على تحمل التعذيب، قلت في سرّي "ما اتعرض له الآن سينتهي عاجلاً أم آجلاً ولن يستمر". عجز "المعلم" عن استخراج الاعترافات منّي، طلب من عناصره ارجاعي إلى الزنزانة، وقال لهم: "ذكروني بها بعد العيد"، لا شعورياً صرخت "لا"، فرد صرختي بصرخة أقوى وقال: "هل تريدني ان انزلك إلى العسكر ليغتصبوكي؟؟".

على باب المنفردة قال احد العناصر لمجموعة من الشباب، "الآنسة ستمضي العيد لدينا"، فردوا عليه: "هذا الذي يريد ان يسقط النظام".

اختفى الكرسي من الغرفة. افترشت الارض، بدأ جسدي يتفاعل مع الصعقات الكهربائية، بدأت بالبكاء بشكل هستيري. سمعت أحد المساجين في الزنزانة المجاورة يبكي ويصرخ قائلاً: "يا الله لماذا تركتني على قيد الحياة حتى هذا اليوم، لأرى هذا المشهد؟" وعندما سأله الشباب عن سبب بكائه فقال: "هذه حرمة، انها ضعيفة"، وقال لي من خلف الجدران: "طولي بالك علي يا اختي بس لأطلع من هون.. طولي بالك".

بدأت عضلاتي بالتقلص والارتخاء، هدأت اعصابي، كانت اصوات المساجين تصدح في رأسي، كانوا يعينونني في وحدتي هذه. قرأنا القرآن معاً، كم هو جميل، في تلك الأقبية السوداء الموحشة العفنة يوجد أعظم خلق الله. بعد ساعات أخرجوني من زنزانتني، أعطوني أغراضي ورافقتني دورية، عينايا مغمضتان، يداي مقيدتان إلى الخلف، اخبروني بأني ذاهبة إلى البيت، وأخبرني أحد العناصر بأن أحد أفراد أسرتي سيستلمني منهم. سألني عما اذا تعرض أحد لي وتسبب بأذيتي، سألني ببساطته "لماذا قمت بهذا الخطأ؟ ما ينقصك؟ انت تلميذة طب ومن الظاهر انك لست فقيرة ! لماذا خرجتني ضد النظام ؟"، كلماته اعادتني إلى لحظة توقيفي في محرس الجامعة، حين سألتني احدى النساء الثلاث "ماذا ينقصك ؟ موبالك يساوي خمسين ألفاً!".

طال انتظاري في السيارة، راودتني افكار بنفسجية خلالها، من من اهلي سيأتي ليستلمني. أنزلوني من السيارة وأخذوا اغراضي وأعطوني وصل أمانات، ادخلوني إلى غرفة صغيرة، عندما حاولوا اغلاق الباب سألتهم عن أهلي فأجابوني: "غداً سيأتون للقائك"، علمت حينها انه لا وجود لأهلي وأنه تم تحويلي لفرع آخر، فرع التحقيق في مطار المزة التابع للإدارة العامة للمخابرات الجوية.

في هذا الفرع، اكملت ما تبقى من أيامي الثلاثة والعشرين، الغرفة أوسع بقليل من الغرفة الأولى، زرعت بين غرفتي تحقيق، زجاج "محجر" يغطي باب الغرفة من نصفه إلى الأعلى، كانت أشعة الشمس تتسلل بخوف إلى الغرفة، كانت الشمس تساعدني بإحصاء الأيام والليالي.

وجودي بين غرف التحقيق كان بمثابة تعذيب نفسي لي، اذ كنت اسمع يوماً اصوات المساجين وهم يعذبون، كنت اسمع اصوات اللكمات والصعقات والاهانات والشتائم، كان الرجال يصرخون ويبكون تحت التعذيب. سرعان ما تأقلم سمعي ودماعي مع هذه الحفلات التي غالباً ما تبدأ في تمام الساعة التاسعة مساءً حتى ساعات الفجر الأولى.

في احد الايام استدعوني إلى تحقيق مطوّل، معصوبة العينين. تغيرت اللهجة، هددوني بالصعقات الكهربائية الا انهم لم يستخدموها. حاولت في البداية ان أنكر، الا ان المحققين هنا متفرغون لنا، والتحقيق يقام تبعاً لخطوات مدروسة على الأصول. سبقني إلى هنا زميلان، كانا قد اعتقلا في وقت سابق، علمت حينها انهم يملكون معلومات، قررت ان اتكلم ولكن بشكل مدروس، قررت ان اتبع استراتيجية، بمعنى ان اعترف بأني قمت بالاعمال التي لديهم معلومات عنها، وبأني كنت أعتقد ان ما اقوم به صحيحاً، وانني متعاطفة مع الذي يجري في البلد وحزينة على القتل والمعتقلين وأن الاعلام غرّر بي ولم أر الصورة بشكل صحيح. نجحت في هذه الخطة أن أحول التحقيقات إلى جلسات دردشة ونقاشات، خاصة عندما يرسلونني إلى رئيس الفرع "سيادة العميد"، عندما يبدأ بإخباري عن انجازات القيادة الحكيمة في تطوير البلد، ويشرح لي عن المؤامرة الكونية، وأجمل شيء كان عندما أخبرني عن عظمة القطاع الصحي ووفرة وجودة المشافي الحكومية والمعدات المتطورة فيها. للتويز فقط إن المشافي الحكومية في البلاد هي مسالخ وليست مشافي.

في 18 تشرين الثاني/نوفمبر 2012، اتوا لي بمحقق خصوصي، وراح يخبرني عن نظريات "فرويد" ويسألني عن علاقتي بالمحللة النفسية رفاه الناشد. قدم لي سجائر، فرفضتها وشكرته.

بدأ بتحليل حالتي وسألني: "فتاة في سنك بدلاً من ان تكتب رسالة لحبيبها وتتظم الشعر، توزّع المنشورات؟ عندما اخبروني بأن لدي مقابلة مع "يمان" تخيلت انك شاب بشنب".

حاولوا مراراً وتكراراً أن ألقى اللوم على أحد آخر، وأتهم اشخاصاً معينين بالتغريب بي. رفضت هذه اللعبة، وقلت انني صاحبة الفكرة. انكرت معرفتي بجميع الاشخاص الذين سئلت عنهم، حرصت على أن لا أورط أي شخص معي. حاولوا اقناعي بأن الاشخاص الذين اسمع اصواتهم خلال التحقيقات هم مجرمون ومغتصبون، وهم يضربونهم كي يعترفوا. يحاولون اقناعي بأنهم يحافظون على امن البلد وعرضه.

خارج أوقات التحقيق، كنت أحاول ان أنام كثيراً في محاولة لتمضية الوقت، كنت أنشد أغاني الثورة، وعندما اشعر بأن أحدهم اقترب، اخفض صوتي او اسكت. كنت أصلي وأتنبه، وإذا ما اقترب أحد من الزنزانة أقطع الصلاة، الصلاة في السجن ممنوعة .. كنت أقرأ الجرائد، أطلبهم بالجرائد باستمرار، كانوا يأتونني بجرائد البعث وتشرين، كنت أقرأ الصفحات الثقافية والفنية. أجمل خبر قرأته كان عن تجميد عضوية سوريا في الجامعة العربية، أحسست انني ارتفعت شبراً عن البطانية من الفرح.

في إحدى المرات، قرع لي احد الموقوفين على زجاج غرفتي ورفع لي اشارة النصر. تجمدت في مكاني، لم اصدق ما تراه عينا. زاوية النافذة كانت مكسورة، اتلصص من خلالها على المسجونين وأتكلّم اليهم وأدعوا لهم. كانوا يقفون على نافذتي مغمضي العيون، يرتجفون في مكانهم، ما ان يدخلوا غرف التحقيق حتى أسمع أصواتهم. كان هذا الثقب الصغير نافذتي على العالم الخارجي.

أحد العناصر تعاطف معي مراراً وتكراراً، كان يلومني على فعلتي، يشتم الثورة ويقول لي "أنت مكانك ليس هنا"، بعد خمسة عشر يوماً ساعدني بالتواصل مع أمي.

عندما سمعت صوتها، انهارت اعصابي، الا انني سرعان ما تماكنت اعصابي ولم يعد يهمني متى سأخرج. بعد عشرة أيام من وجودي في الفرع، أصبت بمرض جلدي نتيجة البطانيات الوسخة التي كنت أتلف بها، تنبّه لي أحد رجال الأمن، طلب لي الطبيب. ابتسم بعد ان كشف على مرضي وطلب تغيير البطانيات، عرفت حينها أنه "جرب"، وصف لي دواء، بكيت كثيراً وقتها، عزّت علي نفسي .. كنت أكل جسدي من كثرة "الحك".

يوم اعتقالي، حاول أهلي كثيراً الاتصال بي، وكان هاتفي خارج التغطية، لم يقلقوا لأنني اخبرتهم انني سأزور جدتي المقيمة على حدود الجولان، والشبكة هناك غالباً خارج الخدمة. يوم الجمعة صباحاً، وبينما كان والدي يقلب بقنوات التلفزيون، شاهد علي الحسن على قناة الجزيرة يخبر انه تم اعتقاله .. وصلت امي إلى سوريا سريعا، حاولت بشتى الطرق ان تخرجني، استعملت الوساطة وحاولوا ابتزازها .. في النهاية، استطاعت بتاريخ 24 تشرين الثاني/نوفمبر 2012 أن تراني.

كبرت أمي عشر سنين، وضعفت عشرة كيلو غرامات منذ ان عرفت انني اعتقلت، تعيش على المهدئات .. تغيرت ملامحها كثيراً بعد انتهاء الزيارة عدت إلى زنزانتني وفي قلبي شعور بأنني سأخرج قريباً.

السبت 26 تشرين الثاني/نوفمبر 2012، دخل موظف الأمن إلى زنزانتني، وأخبرني انه تم الافراج عني. رافقته لأسلم أغراضي. طلب مني المسؤول عن الأمانات ان أتأكد من أغراضي، تفحصتها وجدت بينها كتاباً ليس لي، انه كتاب "نهج التغيير" للمفكر مالك بن نبي، صدمت لوجوده بين أغراضي، أخبرته بأن هذا الكتاب ليس لي، طلب مني أن أبقيه معي وأن أرحل .. فكرت طويلاً بهذه المصادفة، كتاب لمالك بن نبي أمانة لأحد المعتقلين، هذا نموذج لأحد المجرمين الذين يقتلون الناس ويغتصبون النساء! "لعنكم الله عم تفكروا على خيرة رجال وشباب بلدنا.. انتو المجرمين وما حدا غيركم .. انتو وشبيحتكم".

إحدى العجائب والافتراءات الأخرى عندما ذكرت اسم غياث مطر في أحد التحقيقات، سألوني: غياث مطر؟ تعرفينه؟ قلت لهم: لا، سمعت بقصته فقط، فقالوا لي: هل تعلمين ان غياث لم يتم سجنه ولا يوم. فأجبتهم بالنفي. بعد فترة سألت الموظف المتعاطف معي: أنتم أخبرتموني ان غياث لم يسجن ولا يوم، شو القصة؟ رمقني بنظرته وقال لي لماذا تسألين؟ أخبرته ان سؤالي من باب الفضول، وأني حزنت عليه، فقال لي ونحن أيضاً حزنا عليه، وأضاف: "هل تصدقين ان الناس تقطع وتوصل هنا؟ معروف انو يحيى "أحقر" من غياث وهو رأس التنسيقية بداريا .. اذا الأمن يريد ان يقتل، لماذا يقتل غياث ويترك يحيى؟ بس لو رضي يحيى ان يظهر على التلفزيون كنتي عرفتي كيف مات غياث، ولكن نحن لا نجبر أحداً على ان يطل على التلفزيون الا اذا كان قد ندم على غلطه وأحب ان يخدم غيره". ليلتها لم استطع النوم، وقلت: "الله وأكبر عليكم شو عملتوا فيه لحتى بدكم تطلعوا على التلفزيون ومش رضيان". سألتها: يحيى يعيش هنا؟ فصرخ بوجهي وقال: "لكن شو مفكرة؟" وأخبرني انهم كانوا يكمنون لهم كي يعتقلوهم لكن غياث كان مسلحاً وأطلق النار على العناصر فاضطروا أن يردوا عليه، أصيب وتم نقله فوراً إلى المستشفى، الا ان الله لم يكتب له عمر". "أي شو هالقصة المحبوكه يا زلمة؟ غباؤكم هلكني".

بعد ان تسلّمت أماناتي، توجهت إلى مكتب سيادة العميد وأخبرني انه تم الافراج عني، "طبعا بعد ما تعلمت درسي وتحولت لإنسانة ايجابية بعد ما كنت سلبية"، أسمعني محاضرة ختامية صغيرة وكتب لي على ورقة ارقامه، كي اخبره اذا ما حاول احد ان يزعجني، وقال: "ليس من باب الوشاية لا سمح الله وانما للحفاظ على أمن وأمان الوطن".

أخذتني امي من امام باب الفرع، كنت اشاهد الشام وأبنيتها ولست مصدقة، غيّت في السيارة "يا محلاها الحرية". بعد يومين وصلت إلى الرياض، عندما شاهدني والدي من بعيد، خرّ ساجداً شاكراً، لم أعرفه في الوهلة الأولى، لقد عتق لحيته وخسر بعض الكيلوغرامات.

اليوم أنا بعيدة، تشردت كما تشرد غيري، تأخرت كي أكتب هذه الكلمات وأخرج ما بداخلي من غضب، وأخبركم ماذا جرى لي لأنني كنت متأملة ان أعود إلى الشام في الفصل الثاني وأكمل جامعتي، لكن محاولاتي فشلت. إلا اني سأعود إليها في العام المقبل، سأعود إلى الشام الحرّة، سأعود إلى جامعتي وكلّيتي من دون شبيحة الأسد ومن دون خوف وتماثيل وأصنام ضخمة وصور ومواد الثقافة وجميع انواع الاستبداد.

سأرجع الى سوريا الحرة الديمقراطية المدنية .. سوريا المؤسسات .. سوريا الثقافة والحضارة .. سوريا الحلم ..

يا رب آمين..

وعاشت سوريا حرة أبية ويسقط الطاغية بشار الاسد يلي على اساس خرجت بمكرمة منه فشو رأيه يتكرم على 23 مليون سوري ويرحل ؟؟؟!!".

يمان القادري

(الأربعاء 22 شباط/فبراير 2012)